

النبي ومستقبل الدعوة

تأليف

مروان خليفات

مركز الأبحاث العقائدية :

- إيران ـ قم المقدسة ـ صفائية ـ ممتاز ـ رقم ٣٤
ص . ب : ٣٣٣١ / ٣٧١٨٥
الهاتف : ٧٧٤٢٠٨٨ (٢٥١) (٠٠٩٨)
الفاكس : ٧٧٤٢٠٥٦ (٢٥١) (٠٠٩٨)
- العراق ـ النجف الأشرف ـ شارع الرسول (صلى الله عليه وآله)
جنب مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظله
ص . ب : ٧٢٩
الهاتف : ٣٣٢٦٧٩ (٣٣) (٠٠٩٦٤)
- الموقع على الانترنت: www.aqaed.com
- البريد الالكتروني : info@aqaed.com

شابك (ردمك) : ٧ـ١٩٠ـ٣١٩ـ٩٦٤

النبي ومستقبل الدعوة

تأليف

مروان خليفات

الطبعة الثانية ـ ٣٠٠٠ نسخة
سنة الطبع : ١٤٢٧هـ
المطبة : ليلى

دليل الكتاب:



بسم ا   الرحمن الرحيم

الحمد   رب العالمين والصلاة على خاتم

المرسلين محمد وآله الغر الميامين

مقدمة المركز:

من الثوابت المسلّمة في عملية البناء الحضاري القويم استناد الأُمة إلى قيمها السليمة ومبادئها الاصلية، الامر الذي يمنحها الارادة الصلبة والعزم الاكيد في التصدي لمختلف التحديات والتهديدات التى تروم نخر كيانها وزلزلة وجودها عبر سلسلة من الافكار المنحرفة والاثار الضالة باستخدام أرقى وسائل التقنية الحديثة.

وإن أنصفنا المقام حقّه بعد مزيد من الدقّة والتأمل نلحظ أن المرجعية الدينية المباركة كانت ولا زالت هي المنبع الاصيل والملاذ المطمئن لقاصدي الحقيقة ومراتبها الرفيعة، كيف؟! وهي التي تعكس تعاليم الدين الحنيف وقيمه المقدسة المستقاة من مدرسة آل العصمة والطهارة(عليهم السلام) بأبهى صورها وأجلى مصاديقها.

هذا، وكانت مرجعية سماحة آية ا   العظمى السيد علي السيستاني ـ مد ظله ـ هي السباقة دوماً في مضمار الذب عن حمى العقيدة ومفاهيمها الرصينة، فخطت بذلك خطوات مؤثّرة والتزمت برامج ومشاريع قطفت وستقطف أينع الثمار بحوله تعالى.

ومركز الابحاث العقائدية هو واحد من المشاريع المباركة الذي

أُسس لاجل نصرة مذهب أهل البيت(عليهم السلام) وتعاليمه الرفيعة.

ولهذا المركز قسم خاص يهتم بمعتنقي مذهب أهل البيت(عليهم السلام)على مختلف الجهات، التي منها ترجمة ما تجود به أقلامهم وأفكارهم من نتاجات وآثار ـ حيث تحكي بوضوح عظمة نعمة الولاء التي من ا سبحانه وتعالى بها عليهم ـ إلى مطبوعات توزع في شتى أرجاء العالم.

وهذا المؤلف «النبي و مستقبل اللدعوة» الذي يصدر ضمن «سلسلة الرحلة إلى الثقلين» مصداق حي وأثر عملي بارز يؤكّد صحة هذا المدعى.

على ان الجهود مستمرة في تقديم يد العون والدعم قدر المكنة لكل معتنقي المذهب الحقّ بشتى الطرق والاساليب، مضافاً إلى استقراء واستقصاء سيرة الماضين منهم والمعاصرين كي يتسنى جمعها في كتاب تحت عنوان «التعريف بمعتنقي مذهب أهل البيت».

سائلينه تبارك وتعالى أن يتقبل هذا القليل

بوافر لطفه وعنايته

مركز الابحاث العقائدية

فارس الحسون

مقدمة المؤلّف

رحلتي

كانت انطلاقتي مع رزية الخميس، وهي ليست رزية يوم يسمى الخميس لان أثرها مازال للان، ولن يزول إلى أن يرث ا   الارض ومن عليها.

كان النبي (صلى ا   عليه وآله وسلم) على فراش مرضه، وفي لحظات الوداع الاخيرة يتوجه إلى أصحابه الذين امتلات غرفته بهم ويقول (صلى ا   عليه وآله وسلم): «ا ئتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ابداً»(١) ومن الذي لا يرضى بكلام النبي (صلى ا   عليه وآله وسلم) ؟ ومن لا يحب هذه الهدية من رسول ا   (صلى ا   عليه وآله وسلم) ؟ أنّه الامان من الضلال والتيه، ولكن ماذا جرى ؟ فها هي الامة منذ ذلك اليوم تائهة ومنقسمة إلى فرق ومذاهب، وقد صارت لعبة بيد الاعداء. فماذا حدث ياترى حتى ضلت الامة ؟ ومن الذي حال دون كتابة ذلك الكتاب ؟

في صحيح البخاري، تكلم عمر بن الخطاب، فقال: «إن النبي (صلى ا   عليه وآله وسلم) قد غاب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب ا   »(٢) وفي رواية أخرى:

---

١) «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب مرض النبي (صلى ا   عليه وآله وسلم) و وفاته.

٢) «صحيح البخاري» كتاب المرض، باب قول المريض قوموا عني.

< =

«فقالوا: ماشأنه أهجر ؟ ! استفهموه فذهبوا يردون عليه، فقال (صلى ا عليه وآله وسلم): «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه»(١) .

وهكذا ضلّت الامة، وبدأ الانحراف فيها من يوم الخميس ذاك حين رفض عمر وبعض الصحابة طلب النبي (صلى ا عليه وآله وسلم).

وبالرغم من أنني كنت متعلقاً ببعض الشخصيات إلا أن هذه الحادثة أوقفتني، وصدمت عند ما بحثت عنها في صحيح البخاري ووجدتها وقد دفعتني لاراجع موروثاتي، وفعلاً كان حديث النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) «ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاّ واحدة في الجنة»(٢) يدور بانتباهة عنيفة في خادي.

وهذه الواحدة الناجية أشار لها (صلى ا عليه وآله وسلم) بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر ا وهم ظاهرون»(٣) .

وحين ضممت حديث «إني تارك فيكم الخليفتين من بعدي، كتاب ا

<= لقد فهم عمر أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) كان سيكتب لهم وصية بكتاب ا وشيء آخر اقترن معه دائماً في توصياته (صلى ا عليه وآله وسلم)، لهذا قال فوراً: «حسبنا كتاب ا » ومعناه يكفينا كتاب ا ولا نريد ذاك الشيء المقارن له، وكان النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)يقرن كتاب ا مع أهل بيته دائماً ويوصي الامة باتباعهما معاً وسيمر علينا هذا خلال البحث، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابنا: «وركبت السفينة».

١) «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب مرض النبي ووفاته.

٢) راجع الحديث مثلاً في «مستدرك الحاكم» ١ / ١٢٨، «مسند أحمد» ٢ / ٣٣٢.

٣) «صحيح البخاري» كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ح ٧٣١١.

وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتّى يردا علي الحوض»(١) .

وحديث: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخاف عنها هلك»(٢) .

انكشف لي الامر واضحاً كالشمس. وكان لي صديقٌ متبع لاهل البيت (عليهم السلام)يشعر بأمري، وكنت قد خجلت من مواجهته، فلي كانت معه جولات وجولات في البحث والنقاش، وكثيراً ما أبت نفسي المعاندة الاعتراف له، ولكن في النهاية وبعد صراع مرير مع ذاتي انضممتُ لصديقي دون أن اشعره بذلك، وعند ما صارحته بما صرت إليه ـ وبنفس منكسرة ـ فرح ولم يبد أية شماتة أو سخرية كنت أتوقعهما، وقال: لقد كنت أدعو لك في كل صلاة.

وهكذا استمرت أمطار رحمة ا بالانهمار علي حتى غمرتني، وشعرت بأنني في عالم آخر، في وسط سفينة نوح، تلك السفينة التي مازالت تسير في أبحر الحياة محصنةً بالنجاة والامان.

ومن وسط هذه السفينه أُطل عليك قارىء العزيز بهذا البحث لعلنا نرى قسماً من وجه الحقيقة.

١ / رمضان / ١٤١٩ هـ
اربد ـ الاردن
مروان خليفات

١) وهذا ما يعرف بحديث الثقلين وله ألفاظ أخرى، سيأتي بعضها، والرواية السابقة صححها الالباني.

٢) هذا الحديث صحيح وسيأتي في ثنايا البحث.

توطئة

لقد امتازت رسالة نبينا محمد (صلى ا عليه وآله وسلم) عن سائر الرسالات السماوية بميزات عدة.

فهي خاتمة الرسالات، قال تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ ا وخاتَم النبيين)(١) .

وامتازت بأنّها عامة وموجهة لجميع الناس، قال تعالى: (يا أيها الناس إني رسولُ ا إليكم جميعاً)(٢) و (وما أرسلْنَاك إلاّ رحمةً للعالمين)(٣) وباقية إلى يوم القيامة.

ومن الطبيعي فإن رسالة كهذه لا بد أن تنظر لها السماء نظرة خاصة، فتُعد مشروعاً يحفظ بقاءها وسلامتها من التحريف النصي والدلالي بعد موت صاحبها (صلى ا عليه وآله وسلم)، ويمكن التعرف على طبيعة هذا المشروع الالهي وتكوين مفرداته من خلال الرجوع إلى سنة النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) الفعلية والقولية.

لاشك أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) ميت لكن رسالته باقية، إذن فمن يديم مسيرته المباركة ؟ كيف يقيم ا حجته على الناس ويأخذ بيدهم نحو الكمال ؟

---

١) الليل: ١٢.

٢) الاعراف: ١٥٨.

٣) الانبياء: ١٠٧.

وبعبارة أوضح: ما هي حقيقة المشروع الالهي الذي أعد لهداية الانسان بعد ختم النبوة ؟

ما موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من مستقبل الاسلام ؟ فهل اتخذ (صلى ا عليه وآله وسلم) الترتيبات اللازمة لحفظ رسالته وضمان انتشارها ؟

ما موقفه (صلى ا عليه وآله وسلم) من الكتاب والسنة وهما عهد ا إلى خلقه ؟

إن الاجابة على هذه الاسئلة وغيرها قد يكون لها تأثير كبير على حياة الانسان.

و لو عرضت هذه الاسئلة على المدارس والفرق الاسلامية لكانت أجوبتها متوافقة مع انتماءاتها المذهبية، وهذه إحدى مشاكلنا، فنحن ننتمي ثم نجيب ولو على حساب الحقيقة.

ولا أطيل عليك عزيزي القارئ فقد حاولنا قدر الامكان تجلية تلك الصورة وإبراز حقيقتها المستوحاة من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

أجل إن هناك نظريات مختلفة حول موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من مستقبل دعوته، وأشهر هذه النظريات اثنتان.

النظرية الاولى:

وهذه النظرية تمثل رأي شريحة كبيرة من المسلمين وهم أهل السنة ـ أشاعرة وسلفية ـ ويتضح موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من مستقبل دعوته في الاسطر التالية.

موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من القرآن

القرآن دستور ا ومعجزة نبيه الخالدة، فهل جمعه النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) في كتاب خاص ليحفظه من الضياع ؟

إن الناظر في كتب الحديث يرى أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) أوكل أمر القرآن إلى حفظ الصحابة وجمعهم له، فقد كان البعض يحفظ ما نزل منه، وكان آخرون يكتبون بعض سوره في الصحف، ولا تذكر المصادر أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) اتخذ موقفاً حاسماً بشأن القرآن فقام بجمعه حسب ترتيب نزوله في كتاب خاص.

أجل، هناك قسم من العلماء يذهب إلى أن القرآن جمع على عهد رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم)، ومنهم: الزرقاني، الزركشي، الباقلاني وغيرهم.

إلاّ أن هذا القول يصطدم بروايات جمع القرآن في عهد أبي بكر، فإذا كان القرآن مجموعاً عند بعض الصحابة فلماذا يأمر أبوبكر زيد بن ثابت بجمعه؟

أخرج البخاري عن زيد بن ثابت، قال: «أرسل إلى أبو بكر، مقتل(١) أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر (رضي ا   عنه): إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى: أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر:كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول ا   (صلى ا   عليه وآله وسلم) ؟!

قال عمر: هذا وا   خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح ا   صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر...

قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول ا   (صلى ا   عليه وآله وسلم)، فتتبع القرآن فاجمعه، فوا   لو كلفوني نقل جبل من الجبال ماكان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول ا   (صلى ا   عليه وآله وسلم) ؟

قال: هو وا   خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح ا   صدري للذي شرح ا   له صدر أبي بكر وعمر رضي ا   عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب، واللخاف(٢) ، وصدور الرجال...، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي

---

١) أي: بعد مقتلهم.

٢) العسب: جمع عسيب وهو جريدة من النخل مستقيمة.

واللخاف: حجارة بيض عريضة رقاق، واحدتها لخفة، راجع «لسان العرب» ١٩٧/٩ و٢٦١/١٢.

خزيمة الانصاري لم أجدها مع أحد غيره ! لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حتى خاتمة براءة.. فكانت الصحف عند أبي بكر، حتّى توفاه ا ،ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر(رضي ا عنه)»(١).

إن المتأمل في قول أبي بكر لعمر: «كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم)»، وقول زيد لهما: «كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول ا » يتبين له بوضوح أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) لم يجمع القرآن وإنما جمعه زيد بن ثابت بأمر أبي بكر الذي أقنعه عمر بذلك، وقد جمعه زيد من الصدور والسطور.

قال ابن جزي: «وكان القرآن على عهد رسول ا متفرقاً في الصحف وفي صدور الرجال»(٢) .

موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من السنة

إن الروايات متضاربة حول موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من سنته، وأشهر نص يطالعنا رواية النهي عن الكتابة:

أخرج مسلم: أن رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم)قال: «لا تكتبوا عنّي شيئاً إلاّ القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه»(٣) .

هذا نص عام في النهي ووردت روايات في الاذن بالكتابة للبعض كابن

---

١) «صحيح البخاري» كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ٦ / ٣١٤.

إن هذه الرواية وروايات أُخرى تدعي أن القرآن قد كتب بشهادة شاهدين، وهذه وا أكبر ضربة للقرآن، ومعنى ذلك أن القرآن أخبار آحاد.

٢) «التسهيل» ١٠ / ٦.

٣) «صحيح مسلم» كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم.

عمر(١) وأبي شاة(٢) .

وعلماء القوم مختلفون حول نسخ النهي في الحديث السابق، فمنهم من يقول بالنسخ، ومنهم من لا يلتزم بذلك(٣) .

وبناءاً على ما سبق فإن موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من سنته أنّه تركها مفرقة في الصدور دون جمع إن لم نقل أنّه نهى عن تدوينها، وهو موقف بطبيعة الحال سلبي.

ومما سبق يظهر لنا تأكيد أهل السنّة على أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) ترك القرآن مفرقاً في الصدور والسطور ولم يجمعه في كتاب واحد، ونهى عن تدوين سنته أو تركها في صدور الرجال دون جمع أيضاً.

أما عن الحوادث المستقبلية المستجدة التي لا حكم لها في الكتاب والسنة، فلا نجد أي نص ـ عندهم ـ يشير إلى كيفية التعامل معها.

---

١) راجع «مستدرك الحاكم» ١٠٥/١ ـ ١٠٦، «مسند أحمد» ١٦٢/٢.

٢) «صحيح البخاري» ٤٠/١ ـ ٤١.

٣) كالمحدث رشيد رضا حيث قال: «لو فرضنا أن بين أحاديث النهي عن الكتابة والاذن بها تعارضاً يصح أن يكون به أحدهما ناسخاً للاخر، لكان لنا أن نستدل على كون النهي هو المتأخر بأمرين...» راجع «المنار» ٧٦٦/١٠.

مناقشة النظرية الأولى

إن الناظر للوهلة الاولى في هذه النظرية يضع حولها مجموعة أسئلة واشكالات، فالنبي (صلى ا عليه وآله وسلم) مبعوث للعالمين، والاسلام هو خاتم الاديان، وظهوره على باقي الاديان أمر حتمي لا مفر منه، قال تعالى: (لِيظْهره علَى الدينِ كُله)(١) ، والقرآن باق إلى يوم القيامة فهو أبدي ولكل الناس، فكيف يترك النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) معجزته الخالدة في صدور صحابته وفي العسب واللخاف ؟

إن الصحابة راحلون عما قريب، وستأتي الاجيال تترى وتترى، فأين ستجد معجزة النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) لتؤمن به ولتعمل بقرآنه ؟ هل يبحثون عنه في صدور الصحابة ؟ فالصحابة أموات، ولا يمكن القول أنّه كان في ذهن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) أن يقوم كل جيل بنقل القرآن عن الجيل الذي سبقه مشافهةً، إذ لا دليل على هذا، وهو يؤدي إلى ضياع القرآن واندراس آياته، وقد وجدنا عبدا بن مسعود ينكر المعوذتين من القرآن(٢) .

ولو افترضنا بقاء أمر القرآن كما هو عليه من عدم الجمع، لجاء التابعون وأنكروا بعض السور، تبعاً لابن مسعود، وهذا الانكار قد يحدث في كل

---

١) الفتح: ٢٨.

٢) «فتح الباري» ٨ / ٦٠٤ وصحح ابن حجر ذلك.

جيل، وقد يثور خلاف بين العلماء حول سور القرآن، بعد فقدان الذوق الادبي لدى الكثير منهم وعدم الادراك الحقيقي لاعجاز القرآن البياني.

وهكذا سيكون مصير السنّة النبوية التي تبين مجمل القرآن وتخصص عامه وتقيد مطلقه، بل إن أمر السنّة في هذه النظرية أخطر من القرآن، فالنبي (صلى ا عليه وآله وسلم) في تصورهم لم يكتف بعدم كتابة السنة بل نهى ـ على رأي البعض منهم ـ عن تدوينها، وعلى هذا فإن تخطيط النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)المستقبلي هو أن تروى السنّة مشافهةً ولا تكتب، ولا يمكن تصور هذا، فإذا تصورناه في جيل التابعين وتابعي التابعين والجيل الذي بعدهم... فكيف نتصوره الان ؟ عمن نأخذ السنة ؟ كم سيبلغ طول السند ؟ هل سيتصل السند بالنبي (صلى ا عليه وآله وسلم)خلال هذه القرون الاربعة عشر أم لا ؟ كيف سيتم الوثوق بهذا العدد الهائل من الرواة ؟ وأي كتاب سيتكفّل ببيان أحوالهم لنعرف صدقهم من كذبهم؟...

وقد تأتي بعدنا أجيال وأجيال وتتضاعف المسافة بينهم وبين النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)، وهنا ألا تزداد المشكلة تعقيداً على تعقيد ؟ ! ومن المعلوم أن أنهار الوضع في الحديث النبوي قد فاضت في القرنين الاولين، ولقد وصف الدارقطني هذه الحالة الرهيبة بقوله: «إن الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود»! !

وقال حماد بن زيد: «وضعت الزنادقة على رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) أربعة عشر ألف حديث».

وحين أُخذ ابن أبي العوجاء الزنديق ليضرب عنقه قال: «لقد وضعت

فيكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام»(١) .

ومع ملاحظة هذا الوضع في القرون الاولى فكيف سيكون الوضع في القرون اللاحقة ؟

إن عدم كتابة السنّة يؤذن بضياعها وتحريفها مع مرور الزمن، يقول ابن الصلاح: «ثم إنّه زال ذلك الخلاف ـ أي هل تكتب السنة أم لا ـ وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك وإباحته، ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الاعصر الاخيرة»(٢) .

أجل هذه هي النتيجة، وهي توحي بأن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) كان قد أخطأ ـ والعياذ با ـ بتركه كتابة السنّة، وبعد وفاته (صلى ا عليه و آله وسلم) أدرك العلماء والامراء خطورة هذا النهي فخالفوه وأباحوا كتابتها.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله في المدينة أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم: «أنظر ما كان من حديث رسول ا أو سنته فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء»(٣) .

عجباً، فعمر بن الخطاب يخاف من ضياع القرآن، فيأمر أبا بكر بجمعه، ويخاف عمربن عبدالعزيز من ضياع السنّة فيأمر بكتابتها، فهل كان العمران أشد حرصاً على الاسلام من نبي الرحمة (صلى ا عليه وآله وسلم) ؟

لقد كان النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) يقرأ مستقبل الاسلام لصحابته وقد كُذب عليه في حياته وتنبأ بأنه ستكثر عليه الكذّابة، فقال: «من تعمد على كذباً فليتبوأ

---

١) «لسان الميزان» ٤/٤٣١.

٢) «مقدمة ابن الصلاح» ٣٠٢.

٣) «تدريب الراوي» ١/٤٠.

مقعده من النار»(١) .

فكيف لايضع الضمانات ـ بتدوين سنته ـ لقطع الطريق على هؤلاءالكذبة؟

يقول ابوالحسن الندوي السلفي: «ثم إن الحديث زاخر بالحياة... ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع وحسبة المجتمع، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد من رفع راية الاصلاح والتجديد، وحارب البدع والخرافات والعادات الجاهلية، ودعا إلى الدين الخالص والاسلام الصحيح، لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الامة الاساسية، وكان لابد من تقييده وتسجيله ونشره»(٢) .

إذا كان الحديث من حاجات هذه الامة الاساسية، وكان لابد من تقييده وتسجيله ونشره، فلماذا لم يقُم رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) بتقييده وتسجيله ؟ !

ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «ألا وإني أشهد لسمعت رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) يقول: إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمش في الاخرى حتى يصلحها»(٣) .

فهل يمكن أن يصدق العقل السوي أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) يهتم بانقطاع الشسع ويترك سنته دون تقييد وتسجيل ؟ !

كان حمورابي شخصاً عادياً، ووضع مجموعة قوانين وقبل وفاته كانت

---

١) «صحيح البخاري» كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي (صلى ا عليه وآله وسلم).

٢) «مع رجال الفكر والدعوة» ٧٨.

٣) «صحيح مسلم» كتاب اللباس، باب استحباب لبس النعل في اليمنى أولاً.

مدونة حتى صارت مرجعاً بعده لا خلاف في صحتها، وحمورابي ليس نبياً وليس مبعوثاً لقومه ولا لجميع البشر، لكنه اتخذ التحوطات اللازمة لحفظ تلك القوانين، فهل كان حمورابي أكمل وأبعد نظراً من سيد الخلق (صلى ا عليه وآله وسلم)؟

وفي العصر الحاضر لا نجد دولة إلاّ ولها دستور مدون في كتاب، فهل هذه الدول أكثر حضارةً وتنظيراً من دولة الاسلام ؟

هذه بعض الاشكالات التي ترد على هذه النظرية.

وقد يرد علينا أصحابها بقولهم: لقد ترك النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) الكتاب والسنة دون جمع لانه كان يعلم أنهما سيجمعان مستقبلاً فتركهما للامة.

وهذا ادعاء لا دليل عليه، فقد كان الناس يقرأون في حياة النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) (الْيوم أَكْملْتُ لَكُم دينَـكُم)(١) ، فالدين كامل وجاهز كي ينتشر في أرجاء المعمورة، ومن مصاديق هذا الكمال كون الكتاب والسنّة مجموعين حتّى ينتشرا في البلاد المفتوحة، فالدين كامل قبل أمر عمر لابي بكر بجمع القرآن، وقبل ولادة الزهري ومالك والبخاري.

وإضافة لهذا، فإن الصحابة ـ وكل البشر ـ مكلفون وليسوا مؤلفين، وليس لهم شأن بجمع الكتاب والسنة لانهما من عندا وهو الذي أنزلهما وهو الذي تكفل بحفظ كتابه (إنّا نَحن نَزلْنَا الذكْر وإِنّا لَه لَحافظُون)(٢) .

ومع هذا سنواصل السير مع أصحاب هذه النظرية ونفترض أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) ترك الكتاب والسنة دون جمع، لعلمه أن سيجمعان مستقبلاً.

---

١) المائدة: ٣.

٢) الحجر: ٩.

فهل هذا الافتراض كاف لاقامة الحجة على الناس ؟ وكيف سيتم التعامل مع الكتاب والسنّة ؟ كيف سيعرف الناسخ والمنسوخ، المحكم والمتشابه، الخاص والعام،... ؟ !

ألا يحتاج القرآن إلى بيان صحيح وترجمة لمعانيه ؟ فهل مثل هذا الرأي يتناسب مع كمال الدين وإتمام النعمة ؟

إن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) عند هؤلاء لم يضع برنامجاً متكاملاً لكيفية التعامل مع الكتاب والسنة، وهذا ما لا يمكن تصديقه، فهو (صلى ا عليه وآله وسلم) ذاك الانسان العظيم ذو النظر الثاقب الذي يرفض أن يرى بعين نبوته المستقبل القاتم للامة وتشتتها وتناحرها، وهو ذلك الحريص الرحيم الذي وصفه ا بأروع وصف: (لَقَد جاءكُم رسولٌ من أَنْفُسكُم عزيز علَيه ما عنتم حرِيص علَيكُم بِالْمؤمنين رؤُوفٌ رحيم)(١) .

فكيف نصدق أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) بين كيفية دخول الحمام وآدابه الاخرى ولم يشر إلى مفتاح التعامل مع الكتاب والسنة ؟

إن عدم وجود برنامج مستقبلي يحفظ الكتاب والسنّة نصاً ودلالة مدعاة لاختلاف الامة وتفرقها.

روي عن عبد الوارث بن سعيد أنّه قال: «قدمت مكة فألفيت بها أباحنيفة، فقلت له: ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً ؟ فقال: البيع باطل والشرط باطل.

فأتيت ابن أبي ليلى فسألته عن ذلك، فقال: البيع جائز والشرط باطل.

---

١) التوبة: ١٢٨.

فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك، فقال: البيع جائز والشرط جائز.

فقلت في نفسي: سبحان ا ! ثلاثة من فقهاءالعراق لايتفقون على مسألة!

فعدت إلى أبي حنيفة فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا لك، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم)عن بيع وشرط، فالبيع باطل والشرط باطل.

فعدت إلى ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا لك، حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي ا عنها قالت: أمرني رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) أن اشتري بريرة فأعتقها، البيع جائز والشرط باطل.

قال: فعدت إلى ابن شبرمة فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا لك، حدثني مسعد بن كداح بن محارب بن دثار عن جابر قال: بعث النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) بعيراً وشرط حملانه إلى المدينة البيع جائز والشرط جائز !»(١) .

وبعد غض النظر عن أمر الكتاب والسنة وجمعهما يعرض لنا اشكال آخر وهو: هل أشار النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) إلى الحوادث المستجدة وكيفية استنباط أحكامها ؟

ولربما سيجاب على ذلك بأن هناك القياس والاستحسان وغيرهما من مصادر التشريع، فالعلماء يرجعون إلى هذه المصادر لاستنباط أحكام المسائل المستحدثة

ويبقى اشكالنا في محله، فمن أين اكتسبت هذه المصادر الصفة الشرعية

---

١) «التنبيه على الاسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين» للبطليوسي ١١٥ ـ ١١٧.

وصار يعتمد عليها كالكتاب والسنة ؟ فهي لم ترد على لسان رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) ولم ينزلها ا على نبيه ولم يقس (صلى ا عليه وآله وسلم) ولم يستحسن، بل كان كما قال ا (إن هو إلاّ وحي يوحى)(١) ، ولم يكن (صلى ا عليه وآله وسلم)يرى لرأيه واجتهاده دوراً في التشريع، قال تعالى: (إِنّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكتَاب بِالْحق لِتَحكُم بين الناس بِما أَراك ا ُ)(٢) .

فالنبي (صلى ا عليه وآله وسلم) يحكم بما يريه ا ولم يقل بما رأيته وبما قسته وبما استحسنته.

والملاحظ أن مصادر التشريع هذه محل خلاف بين العلماء، فتجد الحنفية قد أفرطوا في الاعتماد على القياس، بعكس الحنابلة الذين لم يعتمدوه إلاّ قليلاً، أما أهل الظاهر فقد أنكروه مطلقاً، وأنكر الشافعية والمالكية المصالح المرسلة، وأنكر الشافعي الاستحسان فقد ورد عنه: «من استحسن فقد شرع»(٣) .

ولنفترض وجود القياس والاستحسان... من ضمن مصادر التشريع، ولكن ألا تحتاج إلى بيان كامل لمعالمها وكيفية تطبيقها عملياً ؟ وقد تقرر أُصولياً: أنّه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ووقت الحاجة متحقق بموت النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)، ومات النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) ولم يبين معالم هذه المصادر ولم يطبق بعض الموارد عملياً.

إن نسبة هذه الرؤية السلبية لمستقبل الاسلام إلى النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) كانت ثغرة

---

١) النجم: ٤.

٢) النساء: ١٠٥.

٣) جميع كتب الاصول: مبحث الاستحسان.

نفذ منها بعض الكتاب وطعنوا بالنبي (صلى ا   عليه وآله وسلم) والاسلام.

قال إبراهيم فوزي: «كان المجتمع الاسلامي على توالي العصور خالياً من السلطة التشريعية اللازمة التي تشرع للناس على الدوام حاجاتهم الزمنية المستجدة»(١) .

وقال محمود أبو رية: «ولو أن النبي (صلى ا   عليه وآله وسلم) كان قد عني بكتابة الحديث، كما عني بكتابة القرآن، وعني الصحابة من بعده بكتابته، لجاءت أحاديث الرسول (صلى ا   عليه وآله وسلم) كلها متواترة في لفظها ومعناها، وليس شيء منها اسمه صحيح، ولا شيء اسمه حسن، ولا شيء اسمه ضعيف، ولا غير ذلك من الاسماء التي اخترعوها، مما لم يكن معروفاً زمن النبي (صلى ا   عليه وآله وسلم)وصحابته، وبذلك كان يرتفع الخلاف في حقيقته، وينحط عن كاهل العلماء أعباء البحث عن صحته، ووضع المؤلفات الكثيرة التي صنفت في علوم الحديث والبحث عن أحوال الرواة من حيث العدالة والضبط والجرح والتعديل وغير ذلك، وكان فقهاء الدين يسيرون على نهج واحد، لا اختلاف بينهم في أصله ولا تباين... إذ تكون أدلتهم كلها متواترة كالقرآن الكريم، فلا يأخذون بما سموه الظن الغالب، الذي فتح أبواب الخلاف وفرق صفوف الامة وجعلها مذاهب وفرقاً ومما لا يزال أمره بينهم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم»(٢) .

---

١) «تدوين السنّة» ١٥.

٢) «أضواء على السنّة المحمدية» ٢١٨.

الحجة الاخيرة

يذهب البعض إلى أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) جعل أصحابه مرجعية للاجيال من بعده، بحيث يقومون بنقل القرآن والسنة لمن بعدهم، وتحيط هذا القول اشكالات كثيرة نشير لواحد منها(١) :

أخرج البخاري عن أبي وائل، قال: قال عبدا : قال النبي (صلى ا عليه وآله وسلم): «أنا فَرطكم على الحوض، ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لاناولهم اختلجوادوني،فأقول: أي رب أصحابي، فيقول: لاتدري ماأحدثوا بعدك»(٢) .

وأخرج مسلم عن عبدا ، قال: قال رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم): «أنا فرطكم على الحوض ولانازعن أقواماً ثم لاغلبن عليهم، فأقول: يا رب ! أصحابي، أصحابي، فيقال: إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك»(٣) .

وفي رواية اُخرى للبخاري يقال للنبي (صلى ا عليه وآله وسلم): «...انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»(٤) .

هذه الاحاديث صريحة في دخول جماعات من الصحابه في النار، وقد فسرها المفسرون بالمنافقين والمرتدين، وهذا التفسير مخالف لمعطيات

---

١) ومن أراد الفصيل فليرجع إلى كتابنا «وركبت السفينة» فصل: اشكالات على مرجعية الصحابة، ١٨٩ ـ ٢٣٦.

٢) «البخاري» كتاب الفتن ٨٣/٩، وكتاب الرقاق، باب في الحوض.

٣) «مسلم» كتاب الفضائل، باب اثبات حوض نبينا وصفاته.

٤) «البخاري» كتاب الرقاق، باب في الحوض.

الاحاديث.

فعلّة دخول الصحابة في النار هي الاحداث والارتداد بعد النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)، والمنافق لا يرتد لانّه لم يسلم أصلاً وإنّما تظاهر بالاسلام، وكذلك لا يذكر لنا التاريخ أي إحداث للمنافقين بعد وفاة النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) ولا أي تحرك لهم(١) ! والقول بأنّهم مرتدون، يرد عليه بأن المرتدين لم يحدثوا في دين ا ، وقول النبي (صلى ا عليه وآله وسلم): «رجال منكم» «أعرفهم ويعرفونني»(٢) دليل على أنّهم ممن كانوا حول النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من أهل مكة والمدينة، وقوله «أقواماً» دليل على كثرتهم، وهناك رواية تنص على دخول الصحابه النار ولا يبقى منهم إلاّ القليل:

عن أبي هريرة عن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم): «بينما أنا قائم فإذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، قال: هلم، قلت: أين ؟ قال: إلى النار وا ، قلت: وما شأنهم ؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخاص منهم إلاّ مثل همل النعم»(٣) .

قال ابن الاثير: «الهمل: ضوال الابل، واحدها هامل، أي أن الناجي منهم قليل في قلة النّعم الضالة»(٤) .

---

١) وهذا أمر ينبغي التأمل فيه ملياً، فلماذا توقفت مؤامرات المنافقين ؟ هل كان أبوبكر وعمر أذكى من النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) فأوقفاهم عند حدهم وكشفاهم أم أن المنافقين حققوا أغراضهم بعد النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) فسكتوا ؟ ! !

٢) «البخاري» كتاب الرقاق، باب في الحوض.

٣) المصدر السابق.

٤) «النهاية في غريب الحديث» ٢٧٤/٥، وكذا في «لسان العرب» ١٣٥/١٥، وقريب منه في «فتح الباري» ٣٩٢/١١.

فهذا نص صريح في دخول الصحابة النار ولا يبقى منهم إلا القليل.

فبعد هذا كيف يمكن قبولهم مرجعية يحفظون لنا الكتاب والسنة وينقلونهما إلى الناس ؟ والغريب أنّهم نسبوا أمر اختيارهم إلى النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)مع أنه يقول: «فلا أراه يخاص منهم إلاّ مثل همل النعم».

ومما سبق يظهر لنا ضعف هذه النظرية التي تزعم بترك النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)القرآن مفرقاً في الصحف والصدور وعدم جمعه للسنة والنهي عن كتابتها وارجاع الناس إلى صحابته. وحاشا النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) من هذا الموقف السلبي.

النظرية الثانية:

موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) الايجابي

إن موقف النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) الايجابي من دعوته يمر بثلاث مراحل:

المرحلة الاولى: جمع القرآن

حين بدأ نزول القرآن شرع النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) بتدوينه، حيث كان يملي الايات النازلة على علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيكتبها بخطه:

قال الامام علي (عليه السلام)في هذا الشأن: «فما نزلت على رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) آية من القرآن إلاّ أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي»(١) .

واستمرت عملية جمع القرآن في السطور حتّى آخر آية نزلت على النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)، وبتدوين آخر آية كان القرآن مجموعاً في كتاب واحد، وقد كان الصحابة يدونون بعض السور ولكنه كان تدويناً ناقصاً مقارنة بهذا التدوين.

إن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) في قيامه بهذا العمل يكون قد وضع أول الضمانات لحفظ دعوته من الضياع والنسيان، ولكن هذا ليس كافياً ولا يستطيع الناس معرفة الاسلام من خلال القرآن وحده، لهذا قام النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) بخطوة أُخرى.

---

١) «الاصول من الكافي»، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث.

المرحلة الثانية: تدوين السنة

السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وقد شرع النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) بتدوينها تزامناً مع جمع القرآن، وكان تدوين السنّة عملاً مشتركاً بين النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، حيث كان (صلى ا عليه وآله وسلم) يملي وعلي (عليه السلام)يكتب، وبوفاة النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)كانت السنة مجموعة في كتاب أو عدة كتب وقد أودعها النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) أهل بيته (عليهم السلام) فكانت عند علي بن أبي طالب (عليه السلام).

قالت أم سلمة: «دعا رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) بأديم وعلي بن أبي طالب عنده، فلم يزل رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) يملي وعلي يكتب حتى ملا بطن الاديم وظهره وأكارعه»(١) .

وعرف الكتاب الذي يحوي السنة بالجامعة أو صحيفة علي (عليه السلام):

قال الامام جعفر الصادق (عليه السلام)(٢) لاحد أصحابه وهو أبو نصير: «يا أبا محمد وإن عندنا (الجامعة) وما يدريهم ما الجامعة !

قال: قلت جعلت فداك، وما الجامعة ؟

قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) وإملائه من فلق فيه، وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج إليه الناس حتّى الارش في الخدش»(٣) .

---

١) «المحدث الفاصل» للرامهرمزي ٦٠١.

٢) هو الامام السادس من أئمة آل البيت (عليهم السلام).

٣) «الوافي» للفيض الكاشاني.

وهذا الكتاب الذي عرف بالجامعة من أكبر الكتب التي كانت بحوزة آل البيت (عليهم السلام)(١) .

ونقل عنها غير واحد من علماء أهل السنة أمثال:

● ابن سعد في آخر كتابه الجامع.

● البخاري، ذكرها في ثمانية مواضع من (الصحيح)،ورواها بثمان طرق.

● الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، جمع ما نقل عنها في كتاب مستقل عنونه بـ (صحيفة علي بن أبي طالب عن رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم): دراسة توثيقية فقهية»(٢) .

وبالرغم من ذكْر الكتب السنية لصحيفة علي (عليه السلام) إلاّ أنّها لم تعطها حقّها من البيان، بل قد يكون هذا البيان اليسير لصحيفة علي (عليه السلام)فيه ظلم وتزوير لاسباب سياسية وأُخرى مذهبية، ولنأخذ هذه الرواية التي رواها البخاري ونقف عندها قليلاً:

أخرج البخاري عن أبي جحيفة، قال: «قلت لعلي(عليه السلام): هل عندكم كتاب؟

قال: لا، إلاّ كتاب ا ، أو فَهم أعطيه رجلٌ، أو ما في هذه الصحيفة.

قال: قلت: فما في هذه الصحيفة ؟

قال: العقلُ، وفكاك الاسير، ولا يقتلُ مسلم بكافر»(٣) .

---

١) وقد يقال: ولماذا لم يخرج أئمة آل البيت (عليهم السلام) هذا الكتاب ليستفيد منه المسلمون ؟

والجواب: أن الامة هي السبب إذ نحتهم عن مركزهم الذي جعلهم ا فيه كما سيأتي.

١) «تاريخ التشريع الاسلامي» للدكتور عبدالهادي الفضلي ٣٥.

٢) «صحيح البخاري» كتاب العلم، باب كتابة العلم.

يفهم من هذه الرواية وروايات أخرى لم نذكرها(١) أنّه كان هناك تساؤلٌ يدور بين الناس حول أهمية وحقيقة امتلاك آل البيت (عليهم السلام) كتاباً خاصاً أم لا، مما دعا أبا جحيفة أن يسأل علياً (عليه السلام): «هل عندكم كتاب ؟» وأجابه الامام أنّه عندهم صحيفة فضلاً عن كتاب ا .

وقد وصفت الرواية الصحيفة بشكل فيه امتهان وتنقيص لامير المؤمنين (عليه السلام).

فلماذا يحمل علي (عليه السلام) صحيفة فيها هذه المسائل الثلاث ؟ وما الحكمة من ذلك ؟ والواقع ّأنه كانت عنده (عليه السلام) صحيفة كبيرة.

وفي أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) وصف دقيق لهذه الصحيفة:

روى أبوالحسن ابن بابويه، بسنده، عن الامام الباقر (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام)، قال: «قال رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) لامير المؤمنين (عليه السلام): أكتب ما أملي عليك.

فقال: يا نبي ا ، وتخاف على النسيان ؟

فقال: لستُ أخاف عليك النسيان، وقد دعوت ا لك أن يحفظك ولا ينسيك، ولكن، أكتب لشُركائك.

قال: قلت: ومن شُركائي، يا نبي ا ؟

قال: الائمة من ولدك...»(٢) .

---

١) راجع «الرحلة إلى طلب الحديث» للخطيب البغدادي.

١) «تدوين السنة الشريفة» للسيد محمد رضا الجلالي ٧٣ ـ ٧٤، نقلاً عن «الامامة والتبصرة من الحيرة» ١٨٣ ح٣٨، «بصائر الدرجات» للصفّار ١٦٧...

< =

وعن عذافر الصيرفي، قال: «كنت مع الحكم بن عتيبة عند أبي جعفر(١) (عليه السلام) فجعل يسأله، وكان أبو جعفر (عليه السلام) له مكرماً، فاختلفا في شيء.

فقال أبو جعفر (عليه السلام): يا بني قم فأخرج كتاب علي (عليه السلام)، فأخرج كتاباً مدروجاً عظيماً، ففتحه، وجعل ينظر حتّى أخرج المسألة.

فقال أبو جعفر (عليه السلام): هذا خط علي (عليه السلام) وإملاء رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم).

وأقبل على الحكم، وقال: يا أبا محمد اذهب أنت وسلمه وأبو المقدام حيث شئتم يميناً وشمالاً فوا لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل (عليه السلام)»(٢) .

قالت أم سلمة: «دعا رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم)بأديم وعلي بن أبي طالب عنده، فلم يزل رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) يملي وعلي يكتب حتى ملابطن الاديم وظهره وأكارعه»(٣) .

وبتدوين النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) لسنته يكون قد وضع الضمان الثاني لحفظ دعوته، ولكن جمع القرآن وتدوين السنّة لا يكفي لحفظ الدعوة، فترك القرآن والسنة بأيدي الامة مدعاة للاختلاف والفرقة، فالامة لا تستطيع بيان القرآن والسنة وتوضيح دلالتهما بياناً قائماً على الجزم واليقين، وحديث

<= وراجع كتاب السيد الجلالي المذكور لترى تصريحات بعض العلماء بامتلاك أهل البيت (عليهم السلام) صحيفة أو صحفاً.

١) هو محمد الباقر الامام الخامس من أئمة آل البيت (عليهم السلام).

٢) «فهرست النجاشي» ٢ / ٢٦١.

٣) «المحدث الفاصل» للرامهرمزي ٦٠١، «تدريب الراوي».

«اختلاف أمتي رحمة» الذي قد يحتج علينا البعض فيه حديث كما يقول الالباني لا أصل له، فقد قال فيه: «لا أصل له، ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند فلم يوفّقوا...».

ونقل المناوي عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف» وأقره الشيخ زكريا الانصاري في تعليقه على تفسير البيضاوي (ق ٩٢ / ٢)»(١) ، وقال فيه ابن حزم: «باطل مكذوب»(٢) .

فكما أن حكم ا كان واحداً في حياة النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)فكذا يجب أن يكون فبعد مماته، وكما أن الناس كانوا يرجعون لشخص النبي لحل مشاكلهم ومسائلهم الدينية فكذا يجب أن يخاف النبي من ينوب عنه ويقوم بمهامه ـ ما عدا الوحي ـ ويرجع الناس إليه ويبقى حكم ا واحداً، ومن أجل تحقيق هذا الهدف اتخذ النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) خطوة ثالثة.

المرحلة الثالثة: إعلان مرجعية آل البيت (عليهم السلام)

كان النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) يشعر بدنو أجله وأحس المسلمون بذلك في حجة الوداع، وكان (صلى ا عليه وآله وسلم) يعلم أن الكتاب والسنة دون مبين لهما غير كافيين لمواصلة المسيرة المباركة التي ابتدأها، لذلك أعلن في حجة الوداع على مرأى ومسمع الالوف من الحجاج مرجعية أهل البيت(٣) (عليهم السلام) الفكرية

---

١) «سلسلة الاحاديث الضعيفة» ١ / ٧٦ ح٥٧.

٢) «الاحكام في أصول الاحكام» ٦١/٥.

٣) ونعني بأهل البيت إضافة للنبي (صلى ا عليه وآله وسلم) والزهراء (عليها السلام) الائمة الاثني =>

والسياسية(١) .

وقد نقل لنا مسلم هذه الوصية التاريخية في صحيحه وبعدة طرق: قال زيد بن أرقم ـ أحد رواة الحديث ـ: «قام رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خُماً بين مكة والمدينة فحمد ا وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب ا فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب ا واستمسكوا به»، فحثّ على كتاب ا ورغّب فيه ثم قال: «وأهلُ بيتي، أذكركم ا في أهل بيتي، أذكركم ا في أهل بيتي، أذكركم ا في أهل بيتي»(٢) .

وفي صحيح الترمذي ومستدرك الحاكم ـ وصححه ـ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الاخر: كتاب ا حبل ممدود من السماء إلى الارض، وعترتي أهل بيتي، لن يتفرقا حتّى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفونني فيهما»(٣) .

<= عشر (عليهم السلام) أولهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم الحسن (عليه السلام) والحسين (عليه السلام)وآخرهم المهدي المنتظر عجل ا فرجه، لمزيد من التفصيل انظر كتابنا «وركبت السفينة»٥٣٣ ـ ٥٩٦.

١) ولسنا الان بصدد التعرض للنص الذي يعلن مرجعية أهل البيت (عليهم السلام)السياسية ـ أعني نص الغدير ـ أجل فلندع أمر الخلافة قليلاً ولنرى الان أمر ديننا فمن أين نأخذه ؟

٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام).

٣) «صحيح الترمذي» ج5 كتاب المناقب ٣٧٨٨/٦٦٣، «المستدرك» ١٤٨/٣.

ولقد روى هذا الحديث عن النبي خمسة وثلاثون صحابياً(١) ، وصححه كثير من علماء الحديث، منهم: الحاكم في المستدرك، الذهبي في تلخيص المستدرك، الهيثمي في مجمع الزوائد، وابن كثير في تاريخه، والسيوطي في الجامع الصغير(٢) ، وابن تيمية ذكره في منهاج السنة عدة مرات، وصححه من المعاصرين الالباني المحدث السلفي(٣) ، والمحدث الاشعري الحسن السقّاف(٤) .

وبالرغم من أن الحديث صريح في وجوب اتباع الثقلين معاً الكتاب وأهل البيت (عليهم السلام)، إلاّأن البعض ـ كابن تيمية ـ شكك فيه وعندما اصطدم برواية مسلم قال:

«الحديث الذي في مسلم إذا كان النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) قد قاله ! ! فليس فيه إلاّ الوصية باتباع الكتاب، وهولم يأمر باتّباع العترة، ولكن قال: «أذكركم ا في أهل بيتي»(٥) .

ومن الطبيعي إن الذي يعتصر مخيلته ليصرف أحاديث النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) في أهل بيته (عليهم السلام) عن معانيهايقع في هذه المطبات، فإذا كان الامر مجرد تذكير، فلماذا يقرنهم بالقرآن فيقول: «إني تارك فيكم الثقلين» و«لن يفترقا»

---

١) وكل رواياتهم من طرق أهل السنة فراجعها في: «عبقات الانوار» ج١ وج٢ و«ملحق المراجعات» ٣٢٧.

٢) راجع: «حديث الثقلين: تواتره ـ فقهه» لعلي الحسيني الميلاني.

٣) «صحيح الجامع الصغير» ٢ / ٢١٧، رقم ٢٤٥٤.

٤) «صحيح صفة صلاة النبي» ٢٨٩.

٥) «منهاج السنة» ٤ / ٨٥.

و«حتّى يردا».

وقد أسعفنا الالباني برواية صححها، ترد على ابن تيمية وكل من كرر كلامه، فعن زيد بن ثابت قال: قال رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم): «إني تارك فيكم الخليفتين من بعدي، كتاب ا وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتّى يردا علي الحوض»(١) .

أما حديث «كتاب ا وسنتي» فهو غير صحيح، فقد قال فيه أحمد سعد حمدون: «سنده ضعيف» فيه «صالح بن موسى الطلحي»، قال فيه الذهبي: ضعيف، وقال يحيى: ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك»(٢) .

وذهب الحسن السقّاف ـ وهو المحدث الخبير ـ إلى أن لفظ «وسنتي» موضوع(٣) .

أما في مصادر الحديث، فقد ورد في موطأ مالك بدون سند(٤) ، ورواه الحاكم في مستدركه(٥) بسندين أحدهما فيه ابن أبي أُويس وهو ضعيف(٦) والاخر فيه صالح بن موسى الطلحي وهو مجروح(٧) .

---

١) «السنة» لابن أبي عاصم ٣٣٧، رقم الحديث ٧٥٤، «مسند أحمد» ١٨٢/٥.

٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» لابي القاسم اللالكائي السلفي ٨، تخريج أحمد سعد حمدون.

٣) راجع كلامه في «صحيح صفة صلاة النبي» ٢٨٩ ـ ٢٩٤.

٤) «الموطأ» كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر.

٥) «مستدرك الحاكم» ٩٣/١.

٦) راجع ترجمته في: «تهذيب التهذيب» ٢٧١/١.

٧) راجع ترجمته في «تهذيب الكمال» ٩٦/١٣، و«تهذيب التهذيب» <=

ورواه البيهقي(١) بإسنادين، واحد: فيه ابن أبي أُويس، والثاني: فيه صالح بن موسى الطلحي، وقد عرفت حالهما، ووصل ابن عبد البر في التمهيد(٢) حديث الموطأ من حديث كثير بن عبدا وهو مجمع على ضعفه فلا يحتج بحديثه.

وهكذا اتضح الحق مبيناً لكل ذي بصيرة لم ينخرها العناد بالفساد.

حديث السفينة

ونصه: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك».

روى هذا الحديث ثمانية من الصحابة، وصححه كل من: الحاكم في مستدركه، والسيوطي في نهاية الافصال في تشريف الال(٣) ، والطيبي في شرح المشكاة، وابن حجر الشافعي حيث قال: «جاء من طرق عديدة يقوي بعضها بعضاً...»(٤) الحديث.

وصححه محمد بن يوسف المالكي المعروف بالكافي حيث قال بعد كلام له: «ويدلك على ذلك: الحديث المشهور المتفق على نقله: مثل أهل بيتي

<= ٤/٣٥٥.

١) «السنن الكبرى» ١٠ / ١١٤.

٢) «التمهيد» ٢٤ / ٣٣١.

٣) «خلاصة عبقات الانوار» ٤٣.

٤) «الصواعق المحرقة» ١٥٠.

مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»(١) .

وقد روى هذا الحديث حتّى القرن الرابع عشر أكثر من مائة وخمسين عالماً من علماء أهل السنة(٢) .

ودلالة الحديث لا تخفى على أحد في وجوب اتباع أهل البيت (عليهم السلام) لتحصيل النجاة.

حديث الامان

قال رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم): «النجوم أمان لاهل الارض من الغرق وأهل بيتي أمان لأُمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»(٣) .

وهذا الحديث صريح في أن أهل البيت (عليهم السلام) أمان الامة من الاختلاف.

نصوص قرآنية

- قال تعالى: (واعتَصموا بِحبل ا ِ جميعاً ولا تَفَرقُوا) (٤) .

---

١) راجع «خلاصة العبقات» ٢٤٧.

٢) فراجع «مستدرك الحاكم» ٣ / ١٥٠، «المعجم الكبير» للطبراني ١٣٠، «مجمع الزوائد» للهيثمي... انظر «وركبت السفينة» ٤٠٧.

٣) «مستدرك الحاكم» ٣ / ١٤٩ قال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه، «الصواعق المحرقة» ٩١ و١٤٠ وصححه، «مجمع الزوائد» ٩ / ١٤٧.

٤) آل عمران: ١٠٢.

وحبل ا   فسرته الروايات بآل البيت (عليهم السلام)(١) .

● وقد أمر ا   الامة بسؤال أهل الذكر، قال تعالى: (فَاسأَلوا أَهلَ الذكرِ إن كُنْتُم لا تَعلَمون)(٢) وهم آل البيت (عليهم السلام)(٣) .

● وهم الصادقون الذين أمرنا ا   بأن نكون معهم: (يا أيها الذين آمنوا اتقُوا ا َ وكُونُوا مع الصادقين)(٤)(٥) .

وقد وصف ا   اتباع هذا الخط بخير البرية فحينما نزل قول ا   تعالى: (إِن الذين آمنوا وعملوا الصالِحات أُولَئِك هم خَير البْرِية)(٦) قال رسول ا   (صلى ا   عليه وآله وسلم): «يا علي هم أنت وشيعتك»(٧) .

---

١) «روح المعاني» للالوسي ٤ / ١٦، «الصواعق المحرقة» ١٤٩.

٢) النحل: ٤٣.

٣) راجع: «تفسير الطبري» ١٤ / ١٠٩، «تفسير ابن كثير» ٢ / ٥٩١ ـ ٥٩٢، «تفسير القرطبي» ١١ / ٢٧٢...

٤) التوبة: ١١٩.

٥) راجع «الدر المنثور» ٢٩٠/٣، «فتح القدير» للشوكاني ٢٩٥/٢، «روح المعاني» ٤١/١١، «تذكرة الخواص» ١٠.

٦) البينة: ٧.

٧) «تفسير الطبري» ١٤٦/٣، «فتح القدير» ٤٧٧/٥، «الدر المنثور» ٣٧٩/٦، «روح المعاني» ٢٠٧/٣٠، «الصواعق المحرقة» ٩٦...

مقارنة بين النظريتين

سبق لنا إثبات بطلان النظرية الاولى التي تزعم بترك النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) للقرآن محفوظاً في صدور الصحابة وفي بعض الصحف، ونَهيه عن تدوين السنة، أو قل تركها بلا جمع، لمن يذهب إلى أن حديث النهي قد نسخ.

فلايمكننا أن نتصورصدورهذامن نبي ا ، لاننا نروي عنه (صلى ا عليه وآله وسلم) أنّه قال: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلهاكنهارها، لايزيغ عنها بعدي إلاّ هالك»(١) .

ونفهم من هذا النص أن المحجة البيضاء كانت موجودة بالفعل وقت قول النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) لهذا النص، قبل أن يشير عمر على أبي بكر بجمع القرآن، وقبل أن يأمر عمر بن عبد العزيز ابن حزم بجمع الحديث.

والمحجة البيضاء التي تركهم (صلى ا عليه وآله وسلم) عليها هي اتباع آل البيت (عليهم السلام) وأخذ الاسلام منهم، لانّهم أعرف من غيرهم بالكتاب والسنة.

ولو دققنا النظر في قول النبي (صلى ا عليه وآله وسلم): «تركتكم على المحجة البيضاء...»

وقوله: «تركت فيكم... كتاب ا وعترتي» تتضح ملاحظة التوافق بينهما، وأن حديث الثقلين يبين المقصود بالمحجة البيضاء، ففي كلا الحديثين يقول النبي (صلى ا عليه وآله وسلم): «تركت...».

---

١) «مسند أحمد» ١٢٦/٤.

ويستحيل أن يترك النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) الناس على طريقين مختلفين، فالمحجة البيضاء هي اتّباع الكتاب والعترة !

وانظر إلى آخر حديث المحجة: «لا يزيغ عنها إلاّ هالك» وآخر حديث السفينة: «ومن تخاف عنها هلك»، فكلمتي «هالك» و«هلك» في الحديثين تبينان المقصود بالمحجة البيضاء، وهي ركوب سفينة آل البيت (عليهم السلام) والنجاة بهديهم من مهلكة الضلالة، فمن لم يسر على المحجة البيضاء هالك كما أن من عدل عن سفينة آل محمد هلك !

والرواية التالية تلقي مزيداً من الضوء على المحجة البيضاء:

عن جابر قال: خط لنا رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) خطاً فقال: «هذا سبيل» ثم خط خططاً فقال: «هذه سبل الشيطان فما منها سبيل إلاّ عليها شيطان يدعو الناس إليه، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأُجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب ا عزوجلّ فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن تركه وأخطأه كان على الضلالة، وأهل بيتي أذكركم ا عزوجلّ في أهل بيتي، (واعتَصموا بِحبل ا ِ جميعاً ولاَ تَفَرقُوا) »(١) .

ولو قال النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) حديث المحجة مع عدم جمعه للكتاب والسنة وعدم إرجاع الناس إلى شخص ينطق بحكم ا الواقعي لكان ـ حاشاه ـ كحال

---

١) قال أحمد سعد حمدان: رواه أحمد ١ / ٨٧، «الفتح الرباني»، والمروزي في «السنة» ٦، ورواه ابن ماجة موجزاً وابن أبي عاصم في «السنة» موجزاً ـ ١٦، وصحح الالباني هذا الحديث، فراجع «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» لابي القاسم الطبري، تحقيق أحمد سعد حمدان.

أستاذ قال لتلاميذه ـ بعد أن أطفأ أنوارغرفة الدرس وتركها مظلمة ـ سأترككم في هذه الغرفة التي ظلامها كنورها ومن يرسب في الامتحان فهو هالك !

كيف سيجيب هؤلاء التلاميذ على أسئلة الامتحان وهم لا يرون أكفّهم ؟ ونحن مسلمي هذا القرن، كيف سنصلي، نصوم، نحج... مع عدم وجود دليل لنا ؟

لقد جعل ا للانسان الحاجب والرموش لحماية عينيه وهذه من الامور البسيطة جداً إذا ما قيست بضرورة وجود حجة سبحانه على خلقه يبين لهم تعاليم الاسلام، فهل يعقل أن يجعل ا لنا حاجباً ورموشاً لحفظ عيوننا، ولا يضع لنا دليلاً على دينه !

ولذلك لا نجد مصداقاً لقول النبي (صلى ا عليه وآله وسلم): «تركتكم على المحجة البيضاء...» إلاّ في مدرسة آل البيت (عليهم السلام).

فالكتاب والسنة مدونان، ويتجسدان في سلوك أئمة آل البيت (عليهم السلام) وأقوالهم، والاسلام حي يمارس عملياً أمام الناس، فيكون أدعى للفهم والقبول لوجود الشخصية الاسلامية النموذجية الماثلة أمامهم في الحياة اليومية.

وبهذا يعرف الناس الاسلام من هؤلاء الائمة (عليهم السلام)، بدلاً من النظر في كتب الحديث والرجال والاصول... وبدلاً من أن يدب الخلاف بين أبناء الاسلام ويكفّر بعضهم بعضاً، وقد يقتتلون.

فترى فقيهاً يقول: الحكم في هذه المسألة كذا والدليل هذه الاية، وآخر يقول: بل الحكم كذا والاية نفسها تؤيدني، حتّى أن الخلاف وصل بين فقهاء

السنة إلى وحدة الاصول الفقهية وأصالتها، فهذا يقول بحجية القياس، وأهل الظاهر أنكروه، وأجاز مالك بن أنس الاستحسان، وقال الشافعي: «من استحسن فقد شرع»...، حتّى جعلوا الاسلام حيص بيص، فكل واحد في جهة، ويقول دليلي من الكتاب والسنة.

فبدلاً من هذا كله، ومن أن يصبح الاسلام الذي جاء رحمة للعالمين ـ والذي يعبر عن حكم واقعي واحد ـ مذاهب وأحزاباً، يعادي بعضها البعض.. هنالك مراجع جعلهم ا تعالى حججاً على خلقه، أئمة هداة، لا يصعب علينا أن نأخذ الاسلام صافياً منهم، دون الخوض في الكتب المختلفة،وبعيداًعن هذه التعقيدات التي توهن المسلمين وترجعهم إلى الوراء.

يقول الاستاذ عبدالوهاب خلاّف: «مما لا يعرف فيه خلاف بين جمهور المسلمين، أن ا سبحانه لم يترك الناس سدى، وأن له حكماً في كل ما يحدث للمسلم من الوقائع، غير أنه سبحانه لحكمة بالغة لم ينص على كل أحكامه في مواد قانونية جامعه»(١) .

لا ندري كيف اتفقت كلمة جمهور المسلمين على عدم ترك ا عباده سدى، مع ما هو موجود عندهم من ترك ا لكتابه مفرقاً، ونهيه عن تدوين السنة على لسان نبيه (صلى ا عليه وآله وسلم)، وعدم وضعه مرجعية تزود الناس بحاجاتهم المستجدة ؟ !

والعجيب قوله: «أنه سبحانه لحكمة بالغة لم ينص على كل أحكامه في مواد قانونية جامعة» !

---

١) «مصادر التشريع فيما لا نص فيه» ٨.

فهل الحكمة في أن ينص ا على كل أحكامه، ليطمئن المسلم إلى حكم ا ، وتستقيم تربيته التشريعية ؟ أم الحكمة في ترك أحكامه للاجتهاد المبني على الظن، الذي يؤدي إلى تعدد الاراء والمذاهب والقتال والتكفير فيما بين اتباعها ؟!

نعم هذه هي الحكمة التي أشار إليها الاستاذ خلاف، ولا يوجد غيرها وقد عاشها المسلمون، وما زالوا يعيشونها من تكفير لبعضهم البعض، وأنا أجزم أن انقسام هذه الامة إلى فرق ومذاهب لم يحدث إلاّ بسبب اقصاء النخبة التي تمثل النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) عن مواقعهم التي خَصهم ا سبحانه بها، فلو بقي النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) حياً إلى يوم القيامة مع طاعة الناس له لما حدث أي انقسام أو خلاف بينهم، وهكذا لو أطاع الناس خلفاء النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)من آل بيته (عليهم السلام) لما تمزقت أمته (صلى ا عليه وآله وسلم) شيعاً متنافرة في دينه الذي جاء ليؤلف بين قلوب الناس وليس لتشتيتهم.

أتى رجل من أهل الشام ليناظرالامام الصادق (عليه السلام)(١) وأصحابه، فتصدى له هشام بن الحكم(٢) فقال له: «يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لانفسهم ؟

فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه.

قال: ففعل بنظره لهم ماذا ؟

قال: أقام لهم دليلاً كي لا يتشتتوا أو يختلفوا، يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم.

---

١) هو الامام السادس من أئمة آل البيت الاثني عشر (عليهم السلام)، وهو أستاذ أبي حنيفة رغم أنّه يصغره بسنتين، أنظر كتابنا «وركبت السفينة» ٥٥٤ ـ ٥٦٤.

٢) أحد أصحاب الامام الصادق (عليه السلام) المقربين، وقد نسبت إليه كثير من الاتهامات الباطلة.

قال: فمن هو ؟

قال: رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم).

فقال هشام: فبعد رسول ا ؟

قال: الكتاب والسنة.

قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنّا ؟

قال الشامي: نعم.

قال: فلم اختلفنا أنا وأنت وصرتَ إلينا من الشام في مخالفتنا إياك ؟

فسكت الشامي.

فقال أبو عبدا (عليه السلام): مالك لا تتكلم ؟

قال الشامي: إن قلتُ: لم نختلف كذبتُ، وإن قلتُ: إن الكتاب والسنة يرفعان عنّا الاختلاف أبطلتُ لانهما يحتملان الوجوه،وإن قلتُ: قد اختلفنا وكل واحد منّا يدعي الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة، إلاّ أن لي على هذا حجة.

فقال أبو عبدا (عليه السلام): سله تجده ملياً.

فقال الشامي: يا هذا من أنظر للخلق أربهم أم أنفسهم ؟

فقال هشام: ربهم أنظر لهم منهم لانفسهم.

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقهم من باطلهم ؟

قال هشام:نعم.

قال الشامي: من هو ؟

قال هشام: أما في ابتداء الشريعة فرسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم)، وأما بعد النبي فعترته...»(١) .

وقال هشام بن الحكم لاحد خصومه الذين ينكرون وجود مبين للاسلام:

«أتقول أن ا عدل لا يجور ؟

قال: نعم هو عدل لا يجور.

قال هشام: فلو كلّف ا المقعد المشي إلى المساجد والجهاد في سبيل ا ، وكلّف الاعمى قراءة المصحف والكتب، أتراه كان عادلاً ؟

قال: ما كان ا ليفعل ذلك.

قال هشام: علمت أن ا لا يفعل ذلك، ولكن على سبيل الجدل والخصومة أن لو فعل ذلك أليس كان في فعله جائراً إذا كان تكليفاً لا يكون السبيل إلى إقامته وإقامة أدامه ؟

قال: لو فعل ذلك لكان جائراً.

قال هشام: فأخبرني عن ا عزوجلّ كلّف العباد ديناً واحداً لا اختلاف فيه، ولم يقبل إلاّ أن يأتوا به كما كلّفهم ؟ فجعل لهم دليلاً على وجود ذلك الدين ؟ أو كلفهم ما لا دليل لهم على وجوده، فيكون بمنزلة من كاف الاعمى قراءة المصحف والكتب والمقعد المشي إلى الجهاد والمساجد ؟

فسكت خصمه ساعة ثم قال: لا بد من دليل، وليس بصاحبك.

فتبسم هشام وقال: تشيع شطرك وصرت إلى الحق ضرورة، ولا

---

١) «الاحتجاج» ٢ / ٢٧٧ ـ ٢٨١.

خلاف بيني وبينك إلاّ في التسمية»(١) .

نعم لقد أخبر الرسول (صلى ا   عليه وآله وسلم)بافتراق اُمته ثلاثاً وسبعين فرقة، واحدة منها في الجنة، فهل كان يعلم هذا ولا يضع دليلاً على دين ا   الصحيح ؟

إن قيل: الكتاب والسنة هما الدليل.

قلنا: الكتاب والسنة مدعاة للاختلاف لاختلاف العقول في فهمهما، ونحن نريد المقصود الشرعي، وهو واحد لا يتعدد، إضافة إلى أن الرسول (صلى ا   عليه وآله وسلم) ربط بين الكتاب وآل بيته (عليهم السلام)ولذلك يلزمنا الجمع بينهما.

وإن قيل: الاشعري والمذاهب الاربعة.

قلنا: وأي عقيدة للاشعري تقصدون ؟ أعقيدة المعتزلة أم الاشاعرة أم أهل الحديث ؟ ولا أحد من الائمة الاربعة كان قد رأى النبي (صلى ا   عليه وآله وسلم) وسمع منه، وقد نهوا الناس عن تقليدهم(٢) !

لم يدع من أموره أولاها	قد علمتم أن النبي حكيم
ترجع الناس في اختلاف نهاها	كيف تخلو من حجة وإلى من

إن ترك الامة دون مبين للشرع، يدل على قصور النظام الاسلامي، فالفقهاء كانوا يطرحون مسائل لم تقع، ويجتهدون في معرفة أحكامها، واشتهر الفقه الحنفي بالفقه الافتراضي، فهل هؤلاء الفقهاء أكمل وأبعد نظراً من التشريع الالهي ؟ !

يقول الامام علي (عليه السلام): «اللهم بلى لا تخلو الارض من قائم بحجة إما

---

١) «الكشكول» ليوسف البحراني.

٢) وهذا أثبتناه فراجع «وركبت السفينة» ٢٩ ـ ٣٦ و«نحو الاسلام الاصيل» للمؤلف.

ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مستوراً لئلا تبطل حجج ا وبيناته»(1) .

قال هشام بن الحكم لاحد العلماء الذين ينكرون وجود الامام:

«ألك عين ؟

قال: يابني أي شيء هذا السؤال ؟

فقال: هذه مسألتي

قال: سل وإن كانت مسألتك حمقاء.

قال: أجبني فيها.

فقال: سل.

فقال: ألك عين ؟

قال: نعم.

قال: فما تصنع بها ؟

قال: أرى الالوان والاشخاص.

قال: ألك أنف ؟

قال: نعم.

---

1) «ينابيع المودة» في الباب المائة ٥٢٣، «إحياء علوم الدين» ٥٤/١، «حلية الاولياء» بايجاز ٨/١، وقريب منه في «مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» ٣٢/٣ نقلاً عن «إعلام الموقعين» لابن القيم.

قال: فما تصنع به ؟

قال: أشم به الرائحة.

قال: ألك لسان ؟

قال: نعم.

قال: فما تصنع به ؟

قال أتكلم به.

قال: ألك أذن ؟

قال: نعم.

قال: ما تصنع بها ؟

قال: أسمع بها الاصوات.

قال: ألك يدان ؟

قال: نعم.

قال: فما تصنع بهما ؟

قال: أبطش بهما وأعرف اللين من الخشن.

قال: ألك رجلان ؟

قال: نعم.

قال: فما تصنع بهما ؟

قال أنتقل بهما من مكان إلى مكان.

قال: ألك فم ؟

قال: نعم.

قال: فماتصنع به ؟

قال: أعرف به المطاعم والمشارب على اختلافها.

قال: ألك قلب ؟

قال: نعم.

قال: فما تصنع به ؟

فقال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح.

قال: أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب ؟

قال: لا.

قال: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة ؟

قال: يا بني إن الجوارح إذا شكّت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته ردته إلى القلب فيتقين بها اليقين ويبطل الشك.

قال: فإنما أقام ا القلب لشك الجوارح ؟

قال: نعم.

قال: إن ا تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح وينفي ما شكّت فيه، ويترك هذا الخلق كله في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك...(١) ؟ ! !».

١) «الاصول من الكافي» ١ / ١٦٩ ـ ١٧١.

النتيجة

إن ا لم يقبض نبيه (صلى ا عليه وآله وسلم) حتّى أكمل على يديه الدين وأتم النعمة وذلك بجعل آل البيت (عليهم السلام) خلفاء للنبي (صلى ا عليه وآله وسلم) في القيادة والتبليغ، فكما يختار ا الانبياء كذلك يختار أوصياءهم، وكما يحتاج الناس للنبي، يحتاجون للامام، ولا يعقل أن يترك رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) دينه دون مرجع يبينه للناس، فهاهو يستخلف علياً (عليه السلام) على أمانات خاصة(١) ، فهل كانت هذه الامانات أعظم من الامانة الالهية حتّى يتركها دون وصي، ويضع وصياً على أمانات دنيوية ؟ !

بعد الذي قدمنا هل يبقى شك في أحقية مدرسة آل البيت (عليهم السلام) بالامامة وقيادة الامة الاسلامية إلى طريق ا سبحانه ؟

المدرسة السنية تقول: إن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) أهمل أمر المرجعية بعده فلم يجعل للاجيال إلاّ قرآناً مفرقاً في الصحف والصدور.

والمدرسة الشيعية تقول بجمع النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) للقرآن والسنة، وأقام بأمر ا تعالى الائمة الاطهار ترجماناً لهما.

إن من يقف متأملاً بين النظريتين السابقتين لمستقبل الدعوة، فإنه

---

١) قبل موته الشريف كان قد أوصى (صلى ا عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) بأن يسلّم بعض الامانات لاصحابها.

سيهتدي إلى الحقيقة:

فالنظرية الاولى ترى أن النبي (صلى ا عليه وآله وسلم) وبعد ثلاث وعشرين سنة من الجهاد وتحمل الاذى والصعاب لنشر دينه، ترك معجزته الخالدة مفرقة، ونهى عن تدوين سنته المبينة للقرآن، والتي لا يستغنى عنها، وهو يعلم بحاجة الناس إليها، ولم يشر للمستجدات وكيفية التعامل معها...

هذا ما وجدته في النظرية الاولى، وأي منصف يتأملها جيداً سيجد نفس الشيء، وأي محاولة تبريرية لهذه الحقيقة فهي فاشلة، وتغطية على الواقع.

هذا من جانب، ومن جانب آخر لا نرى على المدرسة الشيعية أي مؤاخذة في حق النبي (صلى ا عليه وآله وسلم)، فهو ذلك القائد البصير الذي نظر للامد البعيد فلم يترك الامر بعده مهملاً فارغاً بل رتّبه أروع ترتيب، فالكتاب والسنة مدونان، ولحسم الخلاف في فهمهما جعل ناطقاً عنهما لا يخلو منه زمن.

إن الفكر الذي يقدم هذه الاطروحات لصيانة الاسلام من التحريف وإدامته، لهو فكر عظيم، فلا يمتلك المرء إلاّ أن ينحني أمامه، وبهذا التصور نرى المفارقة العجيبة بين النظريتين.

والضد يظهر حسنَه الضد !

وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين وصل اللهم على محمد وآله الطاهرين

المصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الاحتجاج على أهل اللجاج:

الطبرسي أحمد بن على بن أبي طالب، من أعلام القرن السادس، انتشارات أسوة، الطبعة الاولى، ١٤١٣ هـ.

٣ ـ الاحكام في أصول الاحكام:

ابن حزم الاندلسي، (ت / ٤٥٦ هـ)، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ.

٤ ـ إحياء علوم الدين:

أبي حامد الغزالي، (ت / ٥٠٥ هـ)، دار الهادي، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى.

٥ ـ الاصول من الكافي:

محمد بن يعقوب الكليني، دار الاضواء، بيروت، لبنان، ١٩٨٠ م.

٦ ـ أضواء على السنة المحمدية:

محمود أبو رية، الطبعة الخامسة، نشر البطحاء.

٧ ـ تاريخ التشريع الاسلامي:

الدكتور عبد الهادي الفضلي.

٨ ـ تدريب الراوي شرح تقريب النواوي:

جلال الدين السيوطي،(ت / ٩١١ هـ)،الطبعة الاولى،القاهرة، ١٣٧٩ هـ.

٩ ـ تدوين السنة الشريفة:

محمد رضا الحسيني الجلالي، الطبعة الاولى، ١٤١٣هـ.

١٠ ـ تدوين السنة:

إبراهيم فوزي.

١١ ـ تفسير ابن كثير:

أبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، (ت / ٧٧٤ هـ)،دارالمعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ م.

١٢ ـ التسهيل إلى علوم التنزيل:

ابن جزي، (ت / ٧٤١)، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣ ـ تفسير الطبري:

ابن جرير الطبري، (ت / ٣١٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت.

١٤ ـ تفسير المنار:

محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.

١٥ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد:

أبي عمر ابن عبدالبرالاندلسي، (ت ٤٦٣ هـ).

١٦ ـ التنبيه على الاسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين:

البطليوسي.

١٧ ـ تهذيب التهذيب:

ابن حجر العسقلاني، (ت / ٨٥٢ هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٨ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال:

يوسف جمال الدين المزي، (ت / ٧٤١ هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٩ ـ حديث الثقلين تواتره فقهه:

علي الحسيني الميلاني.

٢٠ ـ حلية الاولياء:

أبي نعيم الاصفهاني، (ت / ٤٣٠ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١ ـ عبقات الانوار في إمامة الائمة الاطهار:

مير سيد حامد حسين الموسوي، (ت / ١٣٠٦ هـ).

٢٢ ـ الدر المنثور:

جلال الدين السيوطي، (ت / ٩١١ هـ)، دارالفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٩٨٣ م.

٢٣ ـ روح المعاني:

الالوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٤ ـ سلسلة الاحاديث الصحيحة:

محمد ناصرالدين الالباني، بيروت، المكتب الاسلامي، الطبعة الرابعة، ١٩٨٥ م.

٢٥ ـ السنة:

ابن أبي عاصم، تحقيق الالباني، المكتب الاسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ.

٢٦ ـ السنن الكبرى:

أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، (ت / ٤٥٨ هـ)، دار الفكر، بيروت.

٢٧ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة:

أبي القاسم الطبري اللالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان.

٢٨ ـ صحيح البخاري:

أبي عبدا إسماعيل البخاري، (ت / ٢٥٦ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٩ ـ صحيح صفة صلاة النبي:

الحسن بن علي السقاف، دار الامام النووي، عمان، الاردن، الطبعة الاولى، ١٩٩٣ م.

٣٠ ـ صحيح مسلم:

مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت / ٢٦١ هـ)، دار الفكر، بيروت.

٣١ ـ الصواعق المحرقة:

ابن حجر الهيثمي، (ت / ٩٧٤ هـ) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة.

٣٢ ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري:

ابن حجر العسقلاني، (ت / ٨٥٢ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ.

٣٣ ـ فتح القدير:

محمد بن علي الشوكاني، (ت / ١٢٥٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي.

٣٤ ـ لسان العرب:

ابن منظور، (ت / ٧١١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٩٩٥ م.

٣٥ ـ لسان الميزان:

ابن حجر العسقلاني، (ت / ٨٥٢ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٤١٦ هـ.

٣٦ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:

أبي بكر الهيثمي، (ت / ٨٠٧ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧ ـ المراجعات:

عبد الحسين شرف الدين، (ت / ١٣٧٧ هـ)، تحقيق الشيخ حسين الراضي، المجمع العالمي لاهل البيت (عليهم السلام).

٣٨ ـ المستدرك على الصحيحين:

أبي عبدا الحاكم النيسابوري، (ت / ٤٠٥ هـ)، دارالمعرفة، بيروت.

٣٩ ـ مسند أحمد بن حنبل:

(ت / ٢٤١ هـ)، دار صادر، بيروت.

٤٠ ـ المعجم الكبير:

الحافظ أبي القاسم الطبراني، (ت / ٣٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي.

٤١ ـ مقدمة ابن الصلاح:

ابن الصلاح، تحقيق الدكتورة عائشة عبدالرحمن، دارالكتب، القاهرة.

٤٢ ـ منهاج السنة النبوية:

أحمد بن تيمية، (ت/ ٧٢٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٣ ـ الموطأ:

مالك بن أنس، (ت / ١٧٩) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٤ ـ مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبدالوهاب.

٤٥ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال:

شمس الدين الذهبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٤٦ ـ نحو الاسلام الاصيل:

مروان خليفات، مؤسسة الثقلين، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٩٩٨ م.

٤٧ ـ النهايه في غريب الحديث والاثر:

مجدالدين ابن الاثير، (ت ٦٠٦ هـ).

٤٨ ـ الوافي:

الفيض الكاشاني.

٤٩ ـ وركبت السفينة:

مروان خليفات، الطبعة الاولى، ١٩٩٧ م، مركز الغدير للدراسات الاسلامية.

٥٠ ـ ينابيع المودة:

القندوزي الحنفي.

المؤلف في سطور



مروان صلاح خليفات

ولد في مدينة اربد بالأردن عام ١٩٧٣ م في أسرة تعتنق المذهب الشافعي.

التحق بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك و تخرج منها عام ١٩٩٥ م.

اعتنق مذهب أهل البيت (عليهم السلام) سنة ١٩٩٢ م.

للمؤلف من الكتب و الأبحاث:

«وركبت السفينة»، طبع مركز الغدير بيروت سنة ١٩٩٧ م.

«نحو الإسلام الأصيل»، طبع مؤسسة الثقلين بيروت سنة ١٩٩٨ م.

«قراءة في المسار الأموي»، طبع مركز الغدير سنة ١٩٩٨ م.